دائــرة

حُصرت[1] فيها المسألة المصرية منذ عشر سنين ، كما يقول مكاتب الأهرام من لندرة . فنهض الوفد بأعباء الحكم ثم تركها . ونهض بها مناوئوه ثم عادت إليه ، ثم ردت إلى مناوئيه ثم عادت إليه ثم ردت إلى مناوئيه ، وهى الآن ما تزال على أكتافهم الضعيفة التى لا تستطيع لها احتمالا . وأظهر الإنجليز مسالمة الوفد ثم خاصموه ، ثم عادوا إلى المسالمة ، ثم عادوا إلى الخصام ثم عادوا إلى المسالمة مرة أخرى ، ثم عادوا إلى الخصام ، وهم الآن غارقون فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان . وفى أثناء هذا الدوران ذهب مندوب وجاء مندوب ، ثم أصابه العزل وجاء مكانه مندوب آخر ثم دهمه النقل وعين مكانه مندوب جديد ، وهو الآن فى الصين يتهيأ للرحلة إلى وادى النيل .

والخصومة بين مصر وإنجلترا ما زالت قائمة كعهدها يوم شبت الثورة بعد الحرب الكبرى ، يريد المصريون أن يستقلوا استقلالا صحيحا ، ويريد الإنجليز أن يخدعوهم عن هذا الاستقلال ، أبوه عليهم أول الأمر ، ثم ظهر أن الإباء لا يجدى ولا يفيد فاعترفوا به

(١) ٢٨ - ٨ - ١٩٣٣

ونزلوا عن شكله وصورته ، وما زالوا منذ ذلك اليوم يدورون فى الدائرة التى رسمها مكاتب الأهرام فأحسن رسمها ، ولا يجدون إلى تحقيقها سبيلا .

والانجليز قوم يحبون الصبر والمصابرة ، ويتخذونهما أساسا للسياسة فى الشرق ، وفى غير الشرق . واليأس بطىء جدا حين يسعى إليهم ، أو يحاول التأثير فى سياستهم ، ولكنهم لم يعصموا منه ، ولم يأخذوا على الأيام عهدا بأن تقطع بينهم وبينه الأسباب ، فهم قد احتلوا مصر منذ أكثر من نصف قرن ، وحاولوا أن يسلطوا بطشهم على نفوس المصريين ليخافوهم ويؤمنوا لهم فلم يفلحوا ، وخلطوا شدة بلين ، وعبوسا بابتسام فلم يفلحوا وأعلنوا الحماية وأقرتهم عليها الدول ، وأيدوها بالحديد والنار ، وسفكوا فى سبيل تأييدها دماء زكية غزيرة ، وأزهقوا فى سبيل تأييدها نفوسا نقية كثيرة فلم يفلحوا ، ثم جنحوا إلى السلم فاستردوا حمايتهم ، وأعلنوا لمصر استقلالها ، وما زالوا منذ ذلك اليوم يدورون ، يبطشون مرة فلا يفلحون ، ويلينون مرة أخرى فلا يفلحون . والمصريون ينظرون إليهم فى هذا كله مبتسمين ابتسام المؤمن بالحق المطمئن إليه الواثق بالفوز آخر الأمر فوزا ليس إلى الشك فيه من سبيل . ومهما تبحث فى هذه الخصومة الطويلة بيننا وبين الإنجليز فأنت منته دائما إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الإنجليز إن كانوا قد ظفروا بكثير من المنافع العاجلة الزائلة فإن موقفهم من مصر اليوم كموقفهم من مصر قبل نصف قرن ، لم يتقدم خطوة واحدة ، بل لعله تأخر خطوات ، فقد احتلوا

مصر وهى خاضعة لسلطان الترك ، وما زالت الحوادث تعمل والمصريون يعينونها على العمل حتى خلصت مصر من السلطان التركى . وقد هَمّ الإنجليز أن يخلفوا الترك ولكنهم لم يفلحوا ، واضطروا إلى أن يعترفوا بأن موقفهم لا يزال كما كان من قبل ، موقف المحتل الغاصب الذى عجز عن أن يجعل غصبه أمرا مشروعا . فإذا كان أحد قد انتفع من هذا الصراع الطويل بين هذا الشعب المصرى الأعزل الضعيف الذى اصطلحت عليه الخطوب وتألبت عليه الدول ، وبين هذا الشعب الإنجليزى العظيم الذى ساد الأرض بقوته ومكره وثروته ، فليس من شك فى أن المصريين إلى الآن هم الفائزون وهم مدينون بفوزهم هذا لأنفسهم ، لا لشىء آخر ، هم مدينون بفوزهم لهذا الحرص الطبيعى على عزتهم وكرامتهم . ولهذا الإلحاح الطبيعى فى حريتهم واستقلالهم . فهم قد عرفوا أنفسهم منذ أقدم عصور التاريخ شعبا كريما ، وعرفهم الناس كذلك شعبا كريما . وهم قد خضعوا لضروب من البغى وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان والرومان ، وجاءتهم أيضا من العرب والترك والفرنسيين . وجاءتهم الآن من الإنجليز ، وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا كله ، فردوا من ردوا من المعتدين ، وأفنوا فى أنفسهم من أفنوا من هؤلاءالمعتدين . فليس غريبا أن يثبتوا للإنجليز أكثر من نصف قرن كما ثبتوا لغيرهم . وليس غريبا أن يخلصوا من الإنجليز بعد طول الصراع كما خلصوا من غيرهم . وإنما الغريب ألّا يعتبر الانجليز بالحوادث ، ولا يستفيدوا من العظات ، ولا يقدروا أنهم لن يظفروا الآن بما عجزوا عنه فى القرن الماضى .

فمصر الآن أرقى وأقوى وأعرف لحقها ، وأحرص عليه مما كانت فى بدء الاحتلال ، ومما كانت بعد الحرب ، ولا تزيدها الأيام إلا معرفة لهذا الحق ، وحرصا عليه ، وتشددا فيه ، وجدا فى السعى إليه . الغريب أن الإنجليز لا يزالون يخيلون إلى أنفسهم أنهم قادرون على إذلال هذا الشعب ، واصلون إلى خداعه والعبث به بعد أن أقامت لهم الأيام والحوادث أوضح الأدلة على أن هذا شيء لا مطمع فيه . وأغرب من هذا أن هؤلاء الانجليز لا يخدعون أنفسهم ، وإنما يخدعهم فريق من طلاب المنافع وذوى الأغراض والمآرب ، يخيل إليهم أن البضاعة حاضرة وأن تسليمها أمر يسير ، فيسمعون لهم ويمدونهم بالقوة والتأييد ، ويدفعونهم إلى الحكم دفعا ، ويظاهرونهم على ظلم الشعب والبطش به ، وينتظرون منهم تسليم البضاعة ، فلا يسلمون إليهم إلا خيبة وفشلا ، وإلا خذلانا وإخفاقا ، ولولا انخداعهم بهذا الفريق من الضعفاء ، وأصحاب المنافع لما داروا وأطالوا الدوران فى هذه الدائرة التى رسمها مكاتب الأهرام منذ عشر سنين .

والغريب أن قد خيل إلى الإنجليز فى أول هذا العهد السعيد أنهم قد أوشكوا أن يخرجوا من هذه الدائرة بفضل الكفاية النادرة والبراعة الباهرة والمقدرة الساحرة التى امتاز بها رئيس الوزراء ، فانتظروا عاما غير فيه النظام ، وعاما أنفذ فيه النظام الجديد ، وعاما آخر مضى فيه تنفيذ النظام الجديد ، ولكنهم انتظروا ومازالوا ينتظرون ولم يظفروا بشيء .

وواضح جداً من حديث مكاتب الأهرام ــ ومن غير هذا الحديث أن الإنجليز كانوا يقدرون أنهم سيفوزون على مصر هذه المرة

بالصبر والمصابرة ، وبانبطش والإلحاح فيه ، وكانوا يظنون أن اعتزال الشعب المصرى تحت الخيمة كما فعل أخيل ، وامتناع الشعب المصرى عن الأشتراك فى الانتخابات أمرا لن يطول ، ولا بد آخر الأمر من أن يخرج الشعب من خيمته ، ويذعن للسلطان الذى فرض عليه ، ولكن عاما مضى وتبعه عام ، ثم تبعهما عام آخر ، وبدأ العام الرابع دورته والحوادث تختلف والخطوب تلح ، والعسف يعبث بالأخلاق والأجسام ، والفقر يفتك بالموسرين والمعسرين ، والشعب تحت الخيمة مقيم لا يريم ، ولا يفكر فى أن يخرج منها ، ولعله لم يكن فى يوم من الأيام أشد احتفاظا بموقفه واستمساكا بإبائه منه فى هذه الأيام ، ولعله أن يكون غدا أشد منه اليوم احتفاظا بهذا الحق واستمساكا بهذا الإباء .

لذلك يئس الإنجليز من سياسة هذا العهد السعيد ، واضطر الانجليز إلى أن يستأنفوا الدوران الذى كانوا فيه فنقلوا مندوبا ، وعينوا مندوبا ، وبدءوا يدورون . وليس يعنينا بحال من الأحوال ما سيلقونه فى طريقهم من العقبات أو يعترضهم من المصاعب ، فلسنا نحن الذين رسموا لهم هذه الدائرة ، ولم نكرههم نحن على أن يدوروا فيها ، وإنما هم الذين يجدون فى الدوران وتجاربه لذة ، فليدوروا إذن ، وليجربوا وليؤيدوا الوزارة القائمة تأييدا حازما أو رخوا ، وليزهدوا فى هذه الوزارة وليؤيدوا وزارة أخرى تشبهها من قريب أو تشبهها من بعيد ، وليلزموا حيادهم الدقيق كما لزموه إلى الآن ، أو ليلزموه فى شكل جديد يجعل تدخلهم فى شئون مصر أظهر

وأصرح ، فليس يعنينا من هذا كله شيء إلا أن نرى ونبتسم واثقين بأنهم سيدورون ويدورون ، ويجربون ويجربون ، ثم ينتهون دائما إلى حيث بدءوا ، لا يجدون مخرجا من هذه الدائرة إلا أن يعدلوا عن سياسة الدوران إلى سياسة المضى على الصراط المستقيم والاتفاق الشريف النقى البرىء من كل غدر ومكر أو إضمار للغدر والمكر مع المصريين .

ما أكثر الفروض ، وما أحب الإنجليز لها ، وأرغبهم فيها . أيقدر رئيس الوزراء على أن يحتمل أعباء منصبه دهرا طويلا فيبقى ، أم يعجز رئيس الوزراء عن ذلك فيستقيل ؟ وإن استقال فمن أين يختار خلفه ؟ أمن اقصى اليمين أم من أقصى الشمال أم من فريق وسط بين بين ؟ ومتى يكون هذا ؟ اقبل عودة المندوب السامى القديم أم أثناء إقامته القصيرة أم بعد وصول المندوب الجديد ؟

فروض كثيرة ولكنها لا تغنى من الحق الواقع شيئا . والحق الواقع الذى لا يحتمل شكا ولا جدالا هو أن الإنجليز وأصدقاءهم حائرون . وأن لا مخرج لهم من هذه الحيرة إلا بالعدول عن الدوران ، واستقبال هذا الشعب المصرى الثابت الصريح بسياسة ثابتة صريحة . فأما ما دون ذلك فعبث كهذا العبث الذى نحن فيه منذ عشر سنين . ومن المحقق أن هذا العبث يغيظ الإنجليز ويسيء إليهم وإلى سمعتهم فى العالم وهيبتهم فى الشرق بمقدار ما يحسن إلينا فيزيدنا ثقة بالحق ويظهرنا للعالم والشرق مظهر الذين يعرفون كيف يلقون الخطوب وهم باسمون .